



حِجَاجِيَّةُ الْأَسَالِيبِ الْإِنْشَائِيَّةِ فِي خُطْبِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ
اللهُ عَنْهُ

The Argumentativeness of the Rhetorical Styles in the
Discourse of Othmane Ibn Affane (May Allah be Pleased
with Him)

مرادي منذر، هوالمية سمير

مخبر التراث الأدبي الجزائري الرسمي والهامشي

¹ جامعة 20 أوت 1955، سكيكدة (الجزائر)، m.meradi@univ-skikda.dz

² جامعة 20 أوت 1955، سكيكدة (الجزائر)، s.soualmia@univ-skikda.dz

ملخص:

تروم هذه الدراسة كشف الطّاقة الحجاجيّة للأساليب الإنشائيّة في خطب عثمان بن عفّان رضي الله عنه، باعتبارها خطابا موجّها يهدف إلى الإقناع، باستعمال أبلغ الأساليب وأقوى الحجج، من أجل إقناع المتلقّي والاستحواذ عليه، تارة بإشراكه في بناء الحجّة، وأخرى باستجلاب اهتمامه ونصب الشّراك الحجاجيّة له في خبايا الأساليب الإنشائيّة. وعليه، تتمحور الإشكاليّة هذه الدراسة حول أثر الحجاج في تحرير معنى الأساليب الإنشائيّة من ضيق المعاني الأصليّة، إلى رحابة الاستعمالات البلاغيّة والحجاجيّة، وأثر ذلك في نفوس المتلقّين، لتخلص هذه الدراسة في الأخير إلى أهميّة الأساليب الإنشائيّة في صناعة الحجاج في خطب عثمان بن عفّان رضي الله عنه.

كلمات مفتاحية: الحجاج، الأساليب الإنشائيّة، الخطابة، عثمان بن عفّان، الإقناع، التأثير

Summary:

This study aims to reveal the rhetorical potential of expressive styles in the discourses of Othman ibn Affan (may Allah be pleased with him), considering them as directed discourse aimed at persuasion, using the most eloquent methods and strongest arguments, in order to convince

the recipient and capture their attention. This is done by sometimes involving them in constructing the argument and at other times by attracting their interest and setting rhetorical traps within the nuances of expressive methods. Therefore, the core issue of this study revolves around the impact of rhetoric in liberating the meaning of expressive methods from the confines of original meanings to the broader uses of rhetoric and persuasion and its effect on the recipients' souls. This study ultimately concludes with the importance of expressive methods in crafting rhetoric in the sermons of Uthman ibn Affan (may Allah be pleased with him).

Keywords: Rhetoric, expressive methods, oratory, Othman ibn Affan, persuasion, influence

1. مقدمة:

تعدّ الأساليب الإنشائية من أقدر فروع علم المعاني على صنع الحجاج، لما تتميز به من مرونة أسلوبية وجمالية بلاغية، تنفذ إلى الأسماع، وتملك جماع القلوب، فتتحقق بذلك الوظيفة التأثيرية والإقناعية، وهي بهذا أساليب بلاغية حجاجية بامتياز، ولم تكن هذه الأدوار الحجاجية للأساليب الإنشائية لتخفى على الخطباء العرب الذين استثمروها منذ الجاهلية، واستمر ذلك حتى العصور الإسلامية، وخطب عثمان بن عفان خير دليل وأوضح برهان على ذلك، فخطبه رضي الله عنه تضحّج بالأساليب الإنشائية التي تكتنز طاقات حجاجية، هو في أمس الحاجة إليها لإقناع الرعية بما يراه أنسب وأصلح لأمر المسلمين، من أمر الجهاد والزهد عن الدنيا.

وإذا كان عثمان بن عفان يهدف إلى إقناع السامعين، فإن هذه الدراسة تهدف إلى محاولة فهم اشتغال الأساليب الإنشائية وتحقيقها للغرض الحجاجي المرجو منها، ولتحقيق ذلك كان لزاما علينا أن نطرح إشكالية ننطلق منها في دراستنا هذه، فكيف استثمر عثمان بن عفان رضي الله عنه الأساليب الإنشائية في إقناع المتلقين؟، وإلى أي مدى وفّق في ذلك؟

وللإحاطة بجوانب هذه الدراسة لجأنا إلى مجموعة من المناهج التي يعضد بعضها بعضها من أجل الوصول إلى فهم عميق وجاد لحجاجية الأساليب الإنشائية، على غرار المنهج التداولي الذي يبحث في مقاصد الخطيب، والبحث في الأغراض التأثيرية للأساليب

الإنشائية، والمنهج الوصفي الذي يستعين بتقنيات التحليل والتفسير التي تبحث في النتيجة الحجاجية لهذه الخطب.

2. مفهوم الحجاج:

1.2 لغة:

يذهب ابن منظور الإفريقي في تعريفه للحجاج إلى ربطه بالمجادلة والخصام الفكري، "يقال حَاجَجْتُهُ أُحَاجُّهُ حِجَاجاً وَمُحَاجَّةً حَتَّى حَاجَجْتُهُ، أَي غَلَبْتُهُ بِالْحُجَجِ الَّتِي أَذْلَيْتُ بِهَا ...، وقال الأزهري الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة"1.

وإذا مفهوم الحجاج يرتبط بمعاني النزاع والخصام، ليس بالسلح المادي وإنما بالبراهين والأدلة التي يستقوي بعضها على بعض، والمقصود بالحجاج هو المتلقي الذي يريد صاحب الحجة إقناعه واستمالته، وسواء في ذلك أكان المتلقي هو الخصم نفسه أو أن يكون حكماً يفصل في قوة الحججتين، أو جمهوراً من المتلقين الذين يميلون حيث الحجة البالغة، فأساس الحجاج هو الغلبة، وإنما قلنا أن أساس الحجاج هو الخصام والنزاع غير المسلحين لعدم اقتضائه العداوة والبغضاء التي تنتهي بموت الخصم وهلاكه، "بل مقتضى حالهما اختلاف الرأي، وإذا كانا كذلك فأصل الحجاج الجدال بالتي هي أحسن الذي لا يقتضي تصلباً وتشنجاً في الرأي"2.

2.2 اصطلاحاً:

إن الهدف المنشود من فعل الحجاج هو إقناع المتلقي، وحمله على القيام بالعمل المطلوب منه فكرياً وعملياً، ولا يتأتى هذا للخطيب حتى يكون عنده تحكّم وإمام واع بالوسائل اللغوية والآليات والتقنيات البلاغية التي من شأنها خداع المتلقي خداعاً مجازياً، والاستحواذ عليه ليخضع بذلك لسلطة هذه الآليات الحجاجية.

ويعمد الحجاج البلاغي -بهدف إقناع المتلقي- إلى الحجج العقلية والمنطقية فيكسوها حللاً بيانية تقرّبها إلى فكر المتلقي، متوسلاً في ذلك وضوح الأسلوب والابتعاد عن غموض الصورة والإكراه الفكري، فالبلاغة في نهاية الأمر ماهي إلا عتاد بنائي يلجأ إليه المخاطب لتزيين الكلام لفظاً ومعنى.

3. حجاجية الأساليب الإنشائية:

لا تحتكم كل الأقوال إلى ثنائية الصدق والكذب، فهناك نوع آخر من الأقوال لا يخضع لهذا المعيار بل يدلّ على موقف المخاطب وبيّن نيّته، ونعني بذلك الأساليب الإنشائية كالاستفهام والنداء والمدح والذم والرجاء...

فالإنشاء لغة: "الإيجاد، واصطلاحاً كلام لا يحتمل صدقاً ولا كذباً لذاته أو هو ما لا يحصل مضمونه ولا يتحقق إلا إذا تلقّظت به"³، وقد تنبّه الخطباء العرب منذ العصر الجاهلي إلى الطّاقة الحجاجيّة التي تكتنّزها هذه الأساليب الإنشائيّة، والتي لا تكتفي في كثير من الأحيان بمحاولة إقناع المتلقّي بما تثيره من أحاسيس ومشاعر، بل وتستدرجه ليكون مشاركاً في العمليّة الحجاجيّة، مما يجعله ملزماً بالامتثال وأكثر طواعيّة للقيام بالعمل المطلوب منه.

1.3 النداء:

النداء من أهم الأساليب الإنشائية الطّلبة فهو: "طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف ينوب مناب أنادي"⁴، وينقسم النداء من حيث استعمال أدواته إلى نوعين: أدوات تستعمل لنداء القريب: الهمزة وأي. أدوات تستعمل لنداء البعيد: يا، آ، وأي، وأيا، وهيا، ووا.

على أن المقام والسيّاق قد يحملان المنادي على نداء المنادى القريب نداء البعيد إذا كان المنادى دون المنادي منزلة، أو إذا كانت بينهما جفوة أو خلاف، وقد ينادي البعيد نداء القريب إذا كان حاضراً في ذهنه، أو تحبّباً إليه.

ويعد النداء أسلوباً حجاجياً بامتياز بما يكتنّزه من طاقة تحفيزيّة تنفذ إلى ذهن السّامع وتحبّب إليه سماع ما بعده بما تسترعي انتباهه، وبالتالي إمكانيّة التأثير فيه وهذا هو مناط الحجاج؛ التأثير والحمل على التّصديق والدّفع إلى الفعل، فالمنادي إنما يطلب بالنداء التفات السّامع رجاء إقباله عليه مدعناً لكلامه.

ولسنا نعلم لونا أدبياً استثمر في النداء واستدعى خصائصه الحجاجيّة مثل الخطابة، ولم يكن عثمان بن عفّان رضي الله عنه بدعاً من هذا، إذ استعمل أدوات النداء في خطبه لأسباب بلاغيّة وحجاجيّة متنوعة.

وقد جاء النداء في خطبه رضي الله عنه بصيغ منها: أيّها النّاس ويا أيّها النّاس، في قوله: "أيّها النّاس: فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجْهَلُه"⁵ وفي قوله: "يا أيّها النّاس: اجلسوا،

مَجْلَدُ الْمَسَالِمِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي خُطْبِ عُثْمَانَ بْنِ عَمَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - (المجلد الرابع عشر / العدد الأول / مارس) 2025

فَجَلَسُوا: الْمُحَارِبُ وَالْمُسَالِمُ"6، لقد استعمل عثمان بن عفان نداءين مختلفين في خطبتين متلاحقتين زمنياً بينهما أحداث دعت إلى هذا الاختلاف الحاصل.

فاستعمل في النداء الأول أداة تستعمل لنداء القريب وهي "أي" مع إضافة الهاء، وهنا يتبادر سؤال إلى الأذهان: لماذا لم يستعمل الخطيب أداة نداء للبعيد نظراً لمكانته من المخاطبين؟، فهو الخليفة وهم الرعية، فنقول إن المقام والسياق هما من ألزما الخطيب بهذا النوع من النداء، فهو في مقام استعطاف وتوبة، يلزمه أن ينزع من نفسه ويساوي مقامه بمقام السامعين ليحملهم على التعاطف معه، وليحقق الاستمالة المأمولة من طرف الخطيب لجمهوره.

أما في النداء الثاني فقد بين السياق وجود جفوة بين الخليفة والرعية فجاء النداء في سياق الأمر بقوله: يا أيها الناس، فأضاف إلى أداة النداء للقريب أداة النداء للبعيد، وذلك راجع إلى أمرين اثنين: أولهما أن الخليفة يريد التقرب إلى رعيته ولا ينفكون يتباعدون عنه، فهو قريب منهم يراعاهم ويسهر على مصالحهم، وهم بعيدون عنه يؤذونه ويشنعون عليه، والأمر الثاني أنه كان يخاطب جمهورين في آن واحد، جمهور يوافقهم وجمهور يخالفه وهو ما نستشفه من قول الرازي: "فجلسوا: المحارب والمسالِم"، ولعلّ هذا ما حمل عثمان رضي الله عنه على قرن النداء بالناس، ولم يحدد المؤمنين فهو يكلم كل ساكنة المدينة، مسلمهم ومعاهدهم، مسلمهم ومحاربهم، ويمكننا شرح النداء الأول بهذه المخطوطة:

أيها الناس ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله

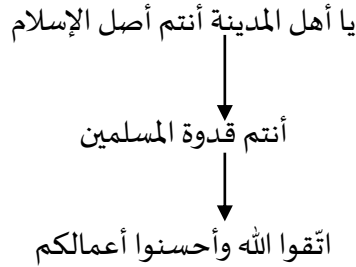
↓
الخليفة غير غافل عن أفعاله

↓
كفوا عني ألسنتكم

كما ورد النداء في خطب عثمان رضي الله عنه بصيغة أخرى هي: يا أهل المدينة، في قوله: "يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ اسْتَوْذِعْكُمْ اللَّهُ"7، وقوله: "يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَنْتُمْ أَصْلُ الْإِسْلَامِ"8، وذلك أن عثمان بن عفان لما أحسن باقتراب أجله وتزايد حقد الثوار عليه توجه إلى مخاطبة أهل المدينة فهم أصل الإسلام وأهل الفضل فيه وإنما كان الثوار شرذمة من أهل مصر والكوفة، فخصّص هذه المرة أهل المدينة بخطابه.

وقد عمد الخطيب في هذين النداءين إلى استعمال أداة النداء "يا"؛ لاعتبارين هما: لأن الخطاب من أعلى لأسفل، من الخليفة إلى الرعية، وللدلالة على عظم القول بعدها، لذا فالسياق مرة أخرى هو من يتحكم في نظم الكلام.

وقد جاء النداء في هذين المثالين بغرضين مختلفين هما الدعاء في قوله: أستودعكم الله، والتهديد والتعزير في قوله: "والله والله والله لا يبلغي عن أحد منكم..."⁹، وهذان النداءان يقودان إلى نتيجة واحدة هي حب الخطيب لأهل المدينة وحرصه على ما فيه صلاحهم.



2.3 الاستفهام:

يعرف الاستفهام بأنه "طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل"¹⁰، وللاستفهام أدوات كثيرة منها ما هو حرف ومنها ما هو اسم.

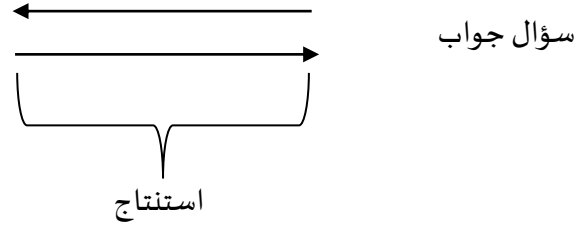
ويخرج الاستفهام تبعا للمقام والسياق من مجرد كونه استعلاما وطلبا للفهم إلى معان بلاغية كثيرة لا يصح بها المتكلم علانية وإنما يتضمنها السياق الذي يحدث انزياحا دلاليا لمعنى الاستفهام، ويبرهن المتكلم على مقدرة المخاطب على الوصول إليه، ومن بين هذه المعاني نجد ما يقصد به الإنكار وما يقصد به التقرير والتنبيه إلى غير ذلك.

ومن هنا يظهر لنا الدور الحجاجي للاستفهام جليا، فالتكلم يلجأ إلى الاستفهام من أجل التأثير في المتلقي المخاطب بجعله مشاركا في بناء الحجة سواء أدرك المخاطب ذلك أم لم يدرك ليتحوّل "المخاطب من موقع المستمع السلبي إلى المشارك الفعلي"¹¹، والتكلم حين يطرح سؤالا فهو ينتظر من المتلقي جوابا سواء عن السؤال المصرح به أو المضمّر الذي يرمي الوصول إليه، ذلك أن قوة الاستفهام الحجاجي الحقيقية تنبني عادة على المضمّر لا المصرح به.

إن هذا الدّفع من المتكلم بالمتلقي إلى المشاركة في الحجة من شأنه تلطيف ما بينهما، لأن السؤال الحجاجي عادة ما يختلف عن السؤال الاستعلامي من حيث معرفة المتكلم

مَجَالِيَةُ الْأَسْأَلِ فِي خُطْبَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَمَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - (الجلد الرابع عشر / العدد الأول / مارس) 2025

بالجواب مسبقاً، فغاية السؤال إذن ليست الاستعلام بل "الاستنتاج المتصل بالزوج: سؤال/جواب"¹²، وهذا كفيل بالضرورة بتوليد نقاش وحوار هادف بين المتكلم والمخاطب.



ومن الأمثلة على الاستفهام المجازي الذي يخرج عن طلب الاستعلام قول عثمان بن عفان رضي الله عنه في أول خطبة له بعد البيعة: "أَيُّ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا وَإِخْوَانِهَا الَّذِينَ آثَرُوهَا وَعَمَرُوهَا، وَمَتَّعُوا بِهَا طَوِيلًا؟، أَلَمْ تَلْفِظْهُمْ؟"¹³

والملاحظ هنا أنَّ هذا الاستفهام هو استفهام مزدوج طرح فيه عثمان بن عفان سؤالاً ليس المسؤول عنه بأعلم بجوابه من السائل، ثم ثنى بسؤال ثانٍ يحمل في طياته جواباً عن السؤال الأول، فقد ابتدأ خطبته بالحديث عن فتنة الدنيا وكثرة ما فيها من الملهيات، وعن كثرة من سكنها وظنَّ أن ليس هناك من هو أشدَّ قوة منه، ثم خرج منها ونسي كأن لم يغن منها بالأمس.

ثم فاجأهم بسؤال اخترق رتبة الكلام وحولهم من مستمعين متلقين إلى مشاركين في بناء الخطاب متفاعلين معه، حيث سألهم عن مصير كل من سكن الدنيا قبلهم وتمتّع فيها طويلاً مستعملاً في ذلك الأداة "أين" للاستفهام عن المكان.

وعليه فإنَّ هذا الاستفهام هو استفهام مجازي خرج عن غرضه الحقيقي الاستفهامي إلى غرض جديد يدل عليه السياق وهو التنبيه على خطورة الدنيا وغدرها بكل من وثق بها، ويدلّ من جهة أخرى على الاستبعاد استبعاد من كان فيها دانياً فيها قريباً من أهله ومن متعها، ثم حيل بينه وبين ما يشتهي فيها.

إنَّ المتلقّي وهو ما يزال يستشعر هذه المعاني المضمرة ويتدبّرها يفاجئه الخطيب بسؤال آخر هو: أَلَمْ تَلْفِظْهُمْ؟، وهو استفهام مجازي غايته التقرير، والتّقدير هنا أن جواب السؤال الأول الذي ارتسم في أذهان المخاطبين هو أن الدنيا قد لفظتهم، فما كان من المتكلم إلا أن كرّر عليهم السؤال بما توقع أنه سيكون في نفوسهم من السؤال الأول فيقرّون

بالجواب، ولا يجد الواحد منهم إلا أن يقول في نفسه بلى لقد لفظتهم، فلا يكون لنا أن نأمنها ونركن إليها وهذه هي النتيجة التي يصبو المتكلم الوصول إليها.

فالمتكلم هنا لم يكتف بطرح حجة عقلية قد يفهمها المستمع وقد لا يفعل، بل لجأ إلى حجة إنشائية يكون فيها المتلقي شريكا في صنع الحجة وبالضرورة مسلما بها، ويمكننا أن نمثلها في السلم الحجائي التالي الذي يتضح فيه تدرج الخطيب في طرح الحجج في هذه الخطبة:

↑ ن: الدنيا زائلة فاتركوها واطلبوا الآخرة

ح2: ألم تلفظهم؟

ح1: أين أبناء الدنيا؟

وفي خطبة أخرى له تضح بالاستفهامات يتدرج في طرح الحجج الاستفهامية وفق سلم حجائي متقن ليصل في النهاية إلى النتيجة التي يرجو تبليغها إلى المستمعين ويحملهم على التسليم بها.

يستفتح عثمان بن عفان رضي الله عنه سلسلة من الاستفهامات باستفهام أول تنبثق منه باقي الاستفهامات يقول فيه: "هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ دَعَوْتُمُ اللَّهَ عِنْدَ مُصَابِ عُمَرَ أَنْ يَخْتَارَ لَكُمْ، وَيَجْمَعَكُمْ عَلَى خَيْرِكُمْ؟"¹⁴، وقد استعمل فيه أداة الاستفهام "هل" وهي أداة يطلب بها التصديق، أي أن جوابها لا يحتمل إلا الجواب بنعم أو لا، وتفترض جهل السائل بالجواب، وهو ما يتناسب شديدا مع هذا السياق، فهم إنما سألوا الله أن يحسن الاستخلاف لهم في سرهم؛ في صلاتهم وفي خلوتهم.

وغرض هذا الاستفهام إنما هو التقرير، فالسامع عندما يسمع هذا السؤال فإنه يرجع إلى نفسه فلا يملك إلا الإقرار بأنه قد دعا الله أن يختار الخليفة الأنسب للمسلمين، وهذا الجواب الذي يخلص إليه يقوده إلى سؤالين اثنين، هل استجاب الله لهم أم لم يستجب، فلو أن الله استجاب لهم وأحسن لهم الخليفة بعد عمر ففيما ثورتهم عليه، وهذا ما حمل الخطيب على طرح السؤال الثاني الذي يبحث فيه عن عدم استجابة الله لهم كما دلت عليه أفعالهم.

جاء السؤال الثاني في قوله: "أَتَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْتَجِبْ لَكُمْ وَهُنْتُمْ عَلَيْهِ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ حَقِّهِ"¹⁵، وقد تدرج في هذا السؤال بعد السؤال الأول، فكونهم لم يسألوا الله حسن الخلافة لهم، أهون من أن يهون أمرهم على الله فلا يستجاب لهم

حجاجة الاستفهام الإنشائية في خطبة عثمان بن عفان رضي الله عنه - (الجزء الرابع عشر) (العدد الأول) مارس 2025

وغرض هذا الاستفهام إنما هو الإنكار، فهو يستنكر عليهم الأسباب التي دعتهم إلى الخروج عن طاعته والتأليب عليه، وهو بهذا السؤال يدفعهم دفعا إلى المشاركة في بناء الحجّة، فكونهم قد دعوا الله أن يستخلف لهم ولم يستجب لهم هو في الأصل ذمّ لهم، حيث لم يعبأ الله بدعائهم، فلا يملكون إلاّ التسليم بأن الله قد استجاب دعاءهم فتكون نتيجة ذلك أن عليهم السمع والطاعة، والكفّ عن طعنهم فيه.

وبينما هم كذلك إذ يفاجئهم الخطيب بسؤال آخر يحاول فيه سببا آخر لعدم استجابة دعائهم وهو في قوله: "أَمْ تَقُولُونَ هَآنَ عَلَى اللَّهِ دِينُهُ، فَلَمْ يُبَالِ مَنْ وَلِيَ"¹⁶، وهذه حجة أقوى من سابقتها، فإنّ الله وإن هان عليه بعض عبادته ببعض ما اكتسبوا، فإنه لا يهون عليه دينه الذي ارتضاه لهم، فهذا إنكار شديد عليهم.

ثم يقول لهم: "أَمْ تَقُولُونَ لَمْ يَكُنْ أُخَذَ عَنْ مَشُورَةٍ، إِنَّمَا كَانَ مُكَابَرَةً"¹⁷، وهم يعلمون أنّ عبد الرحمن بن عوف قد شاور فيه كلّ أهل المدينة حتى شاور فيه الرجال والنساء بل شاور فيه حتّى الصّبية الصّغار فلاقى الإجماع عليه، والخطيب هنا إنّما يتعمد ذكر فرضيات يجمع المخاطبون على بطلانها، ليزجرهم وينتبههم على بطلان دعواهم.

ثم ينتقل إلى سؤال أخطر مما سبق إذ يقول: "أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْلَمْ عَاقِبَةَ أَمْرِي"¹⁸، وهذا الاستفهام الإنكاري يقصد به أن الله استجاب لهم فاختر لهم عثمان وهو لا يعلم ما سيكون من أمره، وهذا أعظم من الاستفهامين السابقين، فهو يختصّ بصفة من صفات الله وهي العلم، ولعلّ القارئ الآن قد أحسّ بهذا النسق المتصاعد من الأسئلة الحجاجية التي اعتمدها الخطيب للتأثير في المتلقّي واستدراجه للتّسليم برأيه.

ويختتم الخطيب هذه السلسلة المحكمة من الاستفهامات باستفهام آخر يذكر فيه المخاطبين بفضلله وسبقه في الإسلام يقول: "أَنْتَعَلَمُونَ لِي مِنْ سَابِقَةِ خَيْرٍ وَقَدِمَ خَيْرٌ؟"¹⁹، فهو يسألهم ضمّنيا أن يذكروا فضلله وسبقه إلى الخير فلا يقتلوه، فإن هم فعلوا وضعوا السيّف على رقابهم، وما زالوا مختلفين إلى يوم القيامة، وهذه هي النتيجة التي يراهن الخطيب على أن يفهمها المخاطبون.

ويمكننا أن نمثل هذا التدرج المحكم في طرح هذه الأسئلة الحجاجية وفق هذا السلم

الحجائي:

- ↑ ن: لا تقتلونني فتضعوا السيف على رقابكم
ح6: أنعلمون لي من سابقة خير؟
ح5: أم تقولون أن الله لم يعرف عاقبة أمري؟
ح4: أم تقولون لم يكن عن مشورة؟
ح3: أم تقولون هان على الله دينه؟
ح2: أتقولون لم يستجب لكم وأنكم هنتم عليه؟
ح1: هل تعلمون أنكم دعوتكم الله أن يختار لكم؟
3.3 الأمر:

يعتبر الأمر من أهم الأساليب الإنشائية الطلبية وهو: "طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء مع الإلزام"²⁰، وقد يرد الأمر حقيقيا مصرحا به كأن يرد بفعل الأمر، أو المضارع المجزوم بلام الأمر، أو اسم فعل الأمر، إلى غير ذلك، وقد يرد مجازيا يدل عليه المقام.

وإذا للأمر أغراض بلاغية عديدة يفرضها المقام، فيتحوّل الأمر عن غرضه الأصلي "وهو الإيجاب والإلزام إلى معان أخرى تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال"²¹ فيراد به النصّح والإباحة والتعجيز والتعجب إلى غير ذلك.

والحقيقة أن أسلوب الأمر لا يكتنز أي طاقة إقناعية في حد ذاته، وإنما يستمدّ قوّته الحجاجية من سلطة الشخص الأمر أو السلطة التي يتكلّم عنها، سواء أكانت سلطة دينية أو علمية أو سياسية، فلا يلجأ المتكلّم عادة إلى حجة السلطة إلا عندما يغيب الدليل البرهاني، فيربط المتكلّم الأمر بالسلطة التي تتوافق مع أطروحاته.

تعتبر الخطابة من أكثر الألوان الأدبية استثمارا لأسلوب الأمر، نظرا لطبيعتها التوجيهية والسلطوية، وقد تعددت أساليب الأمر في خطب عثمان بن عفّان رضي الله عنه وتعددت أغراضها البلاغية والحجاجية، ويمكننا أن نقسم هذه الأوامر من حيث طبيعتها الحجاجية إلى نوعين اثنين هما:

حجج تستند إلى السلطة الدينية وهي عامة أسلوب الأمر في خطبه، فهو يستمدّ سلطته من الله تعالى وقد استخلفه على عباده المؤمنين، وعليه كان لزاما أن يأمرهم بأمر الله، كقوله: "ادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ"²²، وقد جاء هذا الأمر صريحا بصيغة (افعل) ومعناه الامتنان، لأنه يحمل في طياته تذكير المؤمنين بفضل الله تعالى ومنّه عليهم، والنتيجة

الحجاجة لفعل الأمر هذا هي حثّ المسلمين على طاعة الله وعبادته شكرا له على نعمه الكثيرة.

ويمكننا أن نمثلها في السّلم الحجاجي الآتي:

ن: شكر الله تعالى وحسن عبادته

ح2: اذكروا نعمة الله عليكم

ح1: الله تعالى تفضّل عليكم بالتّعم

وحجج شخصية تغدوها هيبة المتكلّم وسطوته، وهي السّلطة التي يضمنها له منصبه فهو الخليفة وأمره مطاع، وعادة ما تحمل هذه الحجج صيغة الأمر الصّريح خاصّة في استفتاح الخطب عند طلب الانتباه، من ذلك قوله: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اجْلِسُوا، فَجَلَسُوا"²³، وصيغة (افعل) هنا تدلّ صراحة على الأمر، وغرضها الحجاجي هنا هو طلب الانتباه، فهو يطلب منهم ضمّنيا أن ينتبهوا ويركّزوا في كلامه نظرا لخطورة وأهميّة الكلام بعده.

ونمثّل لذلك كما يلي:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اجْلِسُوا طاعة الخليفة والانتباه إليه

4.3.4.3. النّهي:

النّهي صنو الأمر، فإن كان الأمر هو طلب الفعل فإنّ النّهي: "هو طلب الكفّ عن الشّيء على وجه الاستعلاء مع الإلزام"²⁴، وقد يخرج النّهي عن غرضه الأساسي إلى معان جديدة يفرضها المقام ويحددها السّياق كالّدعاء والتّهديد والتّحقيق، إلى غير ذلك. وتكمن حجاجيّة أسلوب النّهي في التّأثير على المتلقّي وحمله على الكفّ وتوجيه سلوكه إلى حيث يريد المتكلّم، مستثمرا في ذلك سلطته وهيئته ونفوذه، أو سلطة خارجيّة يتّكئ عليها كسلطة الدّين مثلا.

وقد استثمر عثمان بن عفّان رضي الله عنه أسلوب النّهي لردع المسلمين عن المعاصي، وردع الثّوار عن قتله والتّشنيع عليه، وقد أورد جملة من النّواهي التي اختلف لفظها واتفق معناها كقوله: "لَا تَرْكُنُوا إِلَى الدُّنْيَا، وَلَا تَتَّقُوا بِهَا"²⁵، وقوله: "لَا تَبْطِرُنَّكُمْ الْقَانِيَةُ وَلَا تَشْغَلَنَّكُمْ عَنِ الْبَاقِيَةِ"²⁶، حيث جاء النّهي باستعمال الأداة (لا) الجازمة التي تدخل على الفعل المضارع، وهو هنا كالأمر في معناه، وغرضه التّحذير والنّصح والإرشاد، ويترتّب عن هذا النّهي نتيجة حجاجيّة يبلغها المتكلّم للسّامع تقديرها اتركوا الدّنيا، واشتغلوا بالآخرة، ونمثّل لذلك كما يلي:

لا تبطرنكم الفانية ترك الدنيا والاشتغال بالآخرة (نتيجة)
وقوله في خطبة له: "لا تصيروا أحزاباً"²⁷، وهو نهي يتضمن معنى التحذير والتهديد،
فالتحزب يحمل في طياته معنيين ذميين: التعصب والاختلاف، فيتفرق أمر المسلمين
ويصير أمرهم إلى ما لا يحمد عقباه، وهو ما حدث بالفعل بعد موته من اختلاف الناس
وتحزبهم وقتل بعضهم بعضاً.

لا تصيروا أحزاباً عدم الاختلاف والتعصب ←

5.3 القسم:

يعتبر القسم من أساليب التوكيد، وهو أسلوب إنشائي غير طلبى وغايته تأكيد
جواب القسم، وقد استعمل عثمان بن عفان رضي الله عنه القسم في خطبه تأكيداً لكلامه،
وقد تكررت كلمة "والله" في كثير من خطبه كقوله: "والله إن رضى الفتنة لدائرة"²⁸، ويسمى
هذا النوع قسم الإخبار فقد جاء لتأكيد القول الذي بعده، وهو قسم صريح جاءت فيه
الواو مقرونة بلفظ الجلالة ثم ابتداء القول مؤكداً بـ (إن)، وبما أن لليمين قبولاً وإذعاناً في
نفوس المسلمين فإن لهذا القسم دوراً حجاجياً كبيراً، فإذا صدق المخاطب المتكلم تقرر
إذعانه وانقياده لأوامره.

4. خاتمة:

وختاماً نخلص إلى أن تنوع الأساليب الإنشائية وكثرتها في خطب عثمان بن عفان
رضي الله عنه دليل واضح على طبيعتها الحجاجية، هذه الطبيعة التي ساهمت بشكل كبير
في صناعة الإقناع من خلال التأثير في المتلقي وحمله على ترك معتقداته أو التمسك بها.
تتضمن الأساليب الإنشائية في خطب عثمان بن عفان عدّة علاقات حجاجية قائمة
بين الحجج التي يطرحها والنتائج التي يرجو أن يدركها السامع ويتوصل إليها.
تحمل الأساليب الإنشائية المتلقى بما لها من حيل حجاجية على المشاركة في صناعة
الخطاب الحجاجي من غير وعي منه، ما يجعله مضطراً إلى التسليم للمتكلم، والإقرار برأيه.
كثيراً ما تخرج الأساليب الإنشائية عن معانيها الأصلية إلى معان حجاجية وبلاغية
جديدة تقرر في النفوس، وتخضع لسلطة السياق ومنطق المقام كالتهديد والتحذير والنصح
والإرشاد.

6. مراجع البحث وإحالاته :

- ¹ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، 228/2، (مادة ح ج ج).
- ² عبد الزهرة إسماعيل آل سالم، حجاجة القصص القرآني قصة نوح عليه السلام أنموذجا، مجلة الآداب، ع107، جامعة بغداد، العراق، 2014م، ص66.
- ³ عبد اللطيف شريف، زبير دراق، الإحاطة في علوم البلاغة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2017م، ص28.
- ⁴ المرجع نفسه، ص42.
- ⁵ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ص274.
- ⁶ المصدر نفسه، ص276.
- ⁷ المصدر نفسه، ص276.
- ⁸ المصدر نفسه، ص272.
- ⁹ المصدر نفسه، ص272.
- ¹⁰ عبد اللطيف شريف، زبير دراق، الإحاطة في علوم البلاغة، ص33.
- ¹¹ محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، 2008م، ص138.
- ¹² محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المسألة لميشال ميار، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، ص394.
- ¹³ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ص270.
- ¹⁴ المصدر نفسه، ص276.
- ¹⁵ المصدر نفسه، ص276.
- ¹⁶ المصدر نفسه، ص276.
- ¹⁷ المصدر نفسه، ص276.
- ¹⁸ المصدر نفسه، ص276.
- ¹⁹ المصدر نفسه، ص276.
- ²⁰ عبد اللطيف شريف، زبير دراق، الإحاطة في علوم البلاغة، ص29.
- ²¹ المرجع نفسه، ص30.
- ²² أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ص277.
- ²³ المصدر نفسه، ص276.
- ²⁴ عبد اللطيف شريف، زبير دراق، الإحاطة في علوم البلاغة، ص31.

²⁵ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ص 271.

²⁶ المصدر نفسه، ص 276.

²⁷ المصدر نفسه، ص 277.

²⁸ المصدر نفسه، ص 272.